مظفّر النوّاب:
الرؤية الثوريّة وطريق الخلاص

علي نسر*

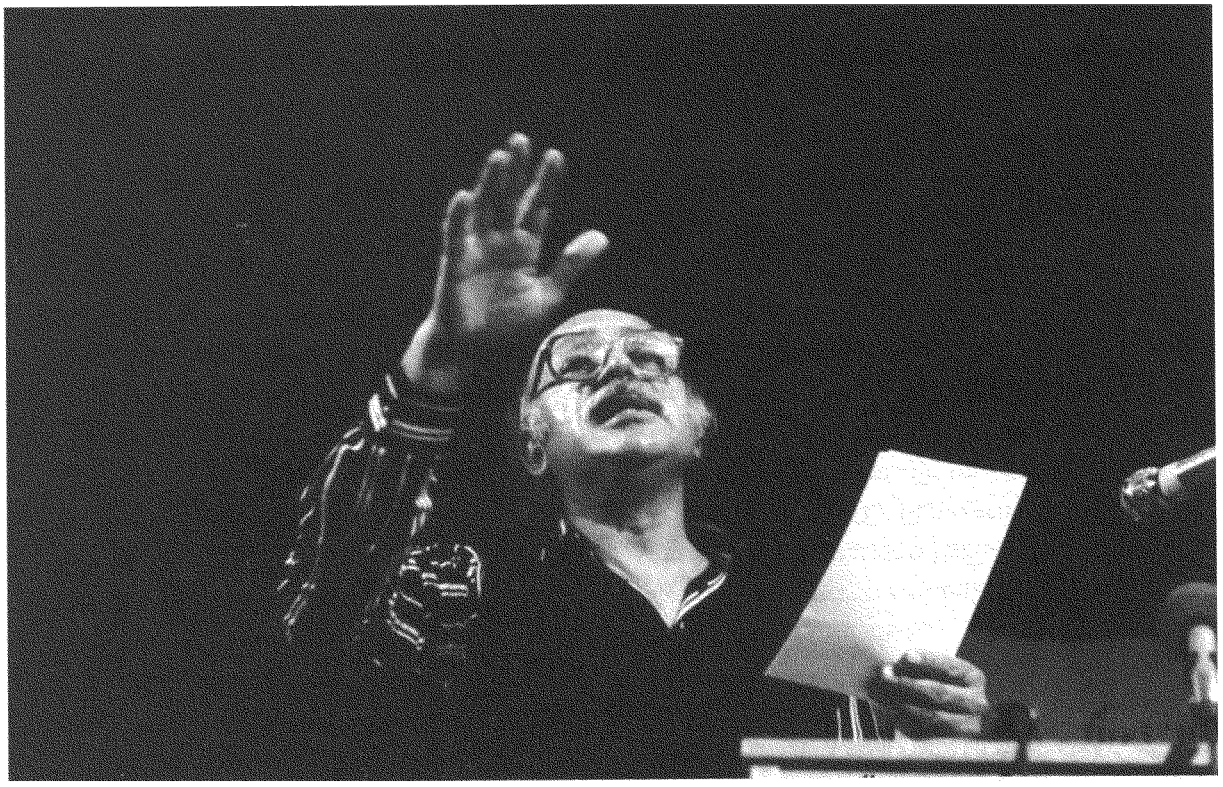

تشكّل الأعمالُ الإبداعيّة قالبًا يفيض بالرؤى التي يُفْرغها المبدعُ فيه، متطلّعًا إلى عالمٍ أفضل يحاول تشييدَه بصلصالٍ جماعيّ: فـ«الجوهر الأساس في العمل الإبداعيّ...لا يرجع إلى إمكانات ذلك الفرد/المبدع... بل يرتبط بشكلٍ حاسمٍ بما يطْلقه المجموعُ الاجتماعيّ من مقولاتٍ فكريّة وقدراتٍ جماعيّةٍ واعية في شكل بنيةٍ شاملةٍ أو ضامّة»(١)؛ ذلك لأنّ المبدع يَحمل طروحاتِ الجماعة ويروّج لها في فنّه وإنْ بطريقةٍ لاواعية. وبهذا يصبح العملُ الإبداعيّ موازاةً تخييليّةً، فاعلةً، للواقع والمجتمع، لا تقتصر على النقل التقريريّ بل تبحث في حلول مشكلات العالم. والحقّ أنّ هناك محطّاتٍ معيّنة تكفّلتْ برفض مظفّر النوّاب الواقعَ والوعيَ القائمَ. ويقتضي البحثُ رصدَ هذه المحطّات، والكشفَ عن طرق معالجتها بحسب وجهة نظره والمجموعة المنتمي إليها.

---

* - باحث جامعي من لبنان.

١ - خليل أبو جهجه، **الرؤية الكونيّة في أدب ميخائيل نعيمه** (بيروت: منشورات اتحاد الكتاب اللبنانيين، ط. أولى، ٢٠٠٤)، ص ١١.

الواقع العربيّ في القصيدة النَّوّابيّة

العالم العربيّ في معظم قصائد النَّوّاب معدمٌ هالك، تمزّقه الصراعاتُ الطائفيّةُ والطبقيّةُ والسياسيّة؛ عالمٌ يخوض حروبًا مع الأعداء الوافدين من وراء البحار، ومع الأعداء الّذين ورثوا الحكمَ غصبًا فحَرموا المواطنَ أدنى الحقوق.

منذ البداية، تظهر الثنائيّةُ الضدّيّة في شعره: طرفاها حاكمٌ مستبدّ، ومواطنٌ مغلوبٌ على أمره؛ أحرارٌ يَنشدون المشاركةَ في بناء وطن مستقلّ، وقامعون يملأون الأرضَ العربيّة سجونًا: «فهذا الوطن الممتدّ من البحر إلى البحر/ سجونٌ متلاصقة/ سجّان يمسك سجّانْ.»[١] لكنّ النوّاب يرى الصراعَ بين الطرفين طبقيًا في الأساس، فيتساءل عن عوامل تكريس هذه القلّة حكّامًا متخاذلين أفقروا الشعبَ في وطنٍ يضجّ بالخيرات من نفطٍ ومياهٍ وأرزاق: «لماذا يسْكن جوعٌ في الأهوار/ جوعٌ وثلاثة أنهار؟!»[٢]

ولم يكتفِ الحكّامُ القلّةُ بمحاربة الكثرة من الشعب طبقيًا، بل حاربوا مَن يقدِّم مشاريعَ تغييريّة لم تأتِ على قياسات أفكارهم وسياساتهم، متذرّعين بمخاطر الأعداء الخارجيين. لكنّ الشاعر يفضحهم، معلنًا أنّهم أكثرُ شراسةً من الأعداء الغزاة؛ يقول مخاطبًا الوطنَ باسم «يعقوب»: «آه يعقوب راقبْ بنيك/ فما افترس الذئبُ يوسف لكنّه الحبّ/ آه من الحبّ في الأمّةِ العربيّة آه!/ وأنا واقفٌ في العراء أدوّنهم/ حطّموا رقمًا في الخيانة/ أجمعُهم وأحاسبُهم باسم عشرين ألف دم.»[٣]

إنّه واقع يرزح تحت نير حكّام تغاضوْا عن نهب الأوطان وخيراتِها أمام أعينهم. فيصرخ النوّاب أمام مشهد الوطن المسروق والمعروض سلعةً للدول الكبرى: «يا بلدي يا سوقَ اللحم لكلِّ الدول الكبرى بلدي/ يا بلدًا يتناهشها الفرس/ ويجلس فوق تنفّسها الوالي العثماني وغلمانُ الروم/ وتحتلم الجيتات الصهيونيّة بالعقدِ التوراتيّة فيها/ بلد يُخرج حتى ملكُ الأحباش الجائف عورتَه في وجهك/ يا بلدي: يا بلدي ورماحُ بني مازن قادرة أن تفتك فيك/ والكلُّ إذا ركب الكرسي يكشّر في الناس كعنترة.»[٤]

وقد ظهر تخاذلُ هؤلاء الحكّام بصورته الأكثر شراسةً في نظرتهم إلى فلسطين وهي تتهاوى أمام أعينهم من دون أن يرفّ لهم جفن. بل هم يصرخون بالضحيّة أن تسكت مثلهم، فيصرخ بهم من جديد: «القدسُ عروسُ عروبتكم/ فلماذا أدخلتم كلَّ زناةِ الليلِ إلى حجرتها/ ووقفتم تسترقون السمعَ وراء الأبواب لصرخاتِ بكارتها/ وسحبتم كلَّ خناجركم وتنافختم شرفًا/ وصرختم بها أن تسكتَ صونًا للعِرض؟/ فما أشرفَكم، أولادَ القحبة، هل تسْكت مغتصَبة؟!»[٥] ولم يقف هؤلاء متفرجين فحسب، وإنما شاركوا المغتصِبَ فعلتَه، وقبضوا ثمنَ بيع فلسطين، وراحوا يتسوّلون ما يرميه أسيادُهم من فضلاتٍ على موائدهم: «من باع فلسطين وأثرى بالله/ سوى قائمةِ الشحّاذين على عتبات الحكّام/ ومائدةِ الدول الكبرى؟»[٦]

ويتمادى هؤلاء في التغاضي عن تغلغل إسرائيل في أصغر تفاصيلهم، جبنًا أو تآمرًا واستسلامًا، حتى لتشارك العربيَّ طعامَه، وتتربّع بنجمتها الداووديّة في أروقة المعابد وأماكن اللهو: «الخبزُ عليه علامةُ إسرائيل/ حبّاتُ الرزِّ عليها إسرائيل/ المسجدُ والخمّارة والصندوقُ القومي لتحرير القدس/ بداخله إسرائيل!/ وأنتَ إذا لم تفهم.../ لم تتعلّمْ يا عبدالله/ تمتصّكَ إسرائيل.»[٧]

لكنّ الشاعر يسلّط سلاحه على من يعتقد أنهم «ثوّار» هذه المرّة. فهو يرفض المتاجرين بالثورة، وإنْ اشتركتْ شعاراتُهم مع ما يرفعه من شعارات. بعضُ هذه الشريحة، في رأيه، امتدادٌ للسلطات الحاكمة، والطرفان شريكان في ضياع فلسطين وانهزام الأمّة: «يا وطني المعروض كنجمة صبح في السوق/ في العلب الليليّة يبكون عليك/ ويستكمل بعضُ الثوّار رجولتهم/ ويهزّون الطبلةَ والبوق/ أولئك أعداؤك يا وطني/ مَن باع فلسطين سوى أعدائك أولئك يا وطني؟»[٨] وهو يؤكّد عدم جدوى الحركات الثوريّة مادامت ضمن إطار التنظير والكتابة: «من باع فلسطين سوى الثوّار الكتبة؟»[٩]

الثورة طريق الخلاص

لم يقف النوّاب ناعيًا في الخرائب واقعًا لا جدوى من معالجته، بل حمل رؤية تنطق بلسانها شريحةٌ من المفكّرين والفنّانين والأدباء: رؤيةً رسمتْ طريقَ الخلاص بالدماء، ورفعتْ شعار الحريّة وإنْ ضاقت عليها جدرانُ الزنازين.

يرى النوّاب أنّ الواقع ليس عقلانيًا، وأنه لا بدّ من أن يصبح «معقلنًا وشرعيًا وعادلاً بتوسّط الثورة.»[١٠] رؤيته هذه تعود إلى الماركسيّة التي تقف «مع الثورة ضدّ السلطة الحكوميّة، وضدّ الدولة، وضدّ ديمقراطيّة البرجوازيّة والأغنياء... وتدعو إلى قيام

---

١ ـ مظفّر النوّاب، **الأعمال الشعريّة الكاملة**، قصيدة «في الحانة القديمة» (لندن: دار قنبر، ١٩٩٦)، ص ٣٠٧.

٢ ـ قصيدة «قراءة في دفتر المطر،» ص ٣١٨.

٣ ـ قصيدة «كيف نبني السفينة في غياب المصابيح والقمر،» ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ «وتريّات ليليّة»/الحركة الأولى، ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤.

٧ ـ «عبدالله الارهابي،» ص٢٣٢.

٨ ـ ٩ ـ «وتريات ليلية»/ الحركة الاولى، ٤٧٦ ـ ٤٧٧.

١٠ ـ نبيل أيّوب، **الطرائق إلى نصّ القارئ المختلف** (بيروت: دار المكتبة الأهليّة، ١٩٩٧)، ص ١٤٣. الجدير ذكره أنّ النوّاب سُجن غير مرّة، وهرب مع مجموعة رفاق بعد الحكم عليه بالإعدام، ومن ثمّ المؤبّد، لإيمانه بالشيوعيّة، فتوجّه نحو الجنوب، وعاش مع الفلاحين حوالى عام، إلى أن عاد إلى بغداد، ثم نفي خارج الوطن. يراجع كتاب هاني الخير، **مظفّر النوّاب شاعر المعارضة السياسيّة** (دمشق: دار الهيثم للطباعة والنشر والتوزيع، د. ت)، ص ١٥.

الاشتراكيّة... وتحدّد إيديولوجيّتها بأنّها نظام الأفكار المدافع عن مصالح الطبقات البروليتاريّة، والحامل إليها القيمَ الإنسانيّة كالأخوّة والصداقة بين الشعوب.»[1] وهو يحدّد انتماءه واضحًا إلى الفلاحين والجياع والثوّار الذين لا يساومون ولا يرفعون سوى السلاح شعارًا للنصر: «أنا أنتمي للجموع التي رفعتْ قهرَها هرمًا/ وأقامت ملاعبَ صور وبصرى/ وأضاءت بروجَ السماء بأبراج بابل/ أنا أنتمي للجياع ومَن سيقاتل/ أنا أنتمي للمسيح المجذّف فوق الصليب/ .../ لمحمّدٍ شرطَ الدخولِ إلى مكّة بالسلاح/ لعليّ بغير شروط.../ أنا أنتمي للفدائيّ ولرأس الحسين/ وللقرمطيّة كلُّ انتمائي/ وللماركسيين شرطَ الثباتِ مع الفقراء/ وشرط القيامِ بها بالسلاح كما هي أصلا/ بدون التفافٍ ودون رياء...»[2]

«وطني علّمني أن أقرأ كلَّ الأشياء/ علّمني أنّ حروفَ التاريخ مزوّرة/ حين تكون بدون دماء.»

إنّ الوطن يحتاج إلى دماءٍ ليحيا: «وطني علّمني أن أقرأ كلَّ الأشياء/ علّمني أنّ حروفَ التاريخ مزوّرة/ حين تكون بدون دماء»[3]؛ «قسمًا بالخبز وبالماء وبالرطب/ قسمًا بتراب أبي/ لن أتأخّر عن سيفٍ يُشْهر ضدّ القمع.»[4] إنّ الواقع اللاعقلانيّ يقتضي أن يدمَّر كي يُبنى ثانية: «اللهّم ابتدئ التخريبَ الآن/ فإنّ خرابًا بالحقّ بناءٌ بالحقّ/ وهذا زمن لا يشبهُ إلا القرنَ الرابع.»[5] ولا بدّ للأمّة من أن تتعلّم دروسًا في التخريب لكي ترمِّم ما تصدّع على أيدي بعض المتآمرين: «سيكون خرابًا، سيكون خرابا/ سيكون خرابا/ هذي الأمّة لا بدّ لها أن تأخذ درسًا في التخريب.»[6]

هذه هي الصورة التي يرسمها الشاعرُ طريقًا لخلاص الأمّة والعالم. إنه طريقٌ معبّدٌ برؤى تنتصر للفلاحين والمضطهدين والطبقات المعدمة، نطق بها بلسان الفرد المبدع، لكنّ خلفيّته جماعيّة استقاها من مفاهيم ظهرتْ ـ أكثر ما ظهرتْ ـ في طروحاتٍ ماركسيّة.

المكان: وظيفته في الرؤية الثوريّة

«لا يمكننا أن نتصوّر وجودنا خارج المكان أو معزولين عنه... فالإنسان يتأثّر بالمكان ويؤثّر فيه.»[7]

غالبًا ما كانت أماكنُ مظفّر النوّاب واقعيّة، لكنّه جعل منها بؤرًا حمّلها أجزاءً من رؤيته الاشتراكيّة. وهو يركّز على الأماكن الشعبيّة، ولاسيّما التي شهدتْ أحداثًا جسامًا، مؤكّدًا أنّ في أعماقها صواعقَ تقدح نارها الثورية على مرّ العصور. فما هي هذه الأماكن؟

أ) المناطق الريفيّة. وأكثر ما ظهرتْ في تصويره منطقةُ الأهوار، جنوب العراق. ففي هذه المنطقة، اتّخذ المنشقّون عن الحزب الشيوعيّ العراقيّ في العام ٦٧ حصونَهم القتاليّة بعد أن اعتمدوا الكفاحَ المسلّح طريقًا لمواجهة السلطة المركزية عقب خلاف داخليّ في الحزب، وكان النوّاب ممن انتموا إلى الطرف المسلّح.

تعرّف النوّاب إلى طبيعة هذا المكان ومعاناة سكّانه وتعطّشهم إلى الثورة والخلاص، فشكّلتْ هذه الحقائق «مناخًا مناسبًا» لهمومه، وهو «صاحبُ النزعة الاشتراكيّة وصديقُ الفقراء والجائعين والبؤساء من أبناء وطنه الذين يعيشون وسط الخيرات والمياه ويلبسون رغم ذلك السوادَ الدائمَ ويأكلون العوزَ والفاقة.»[8] ففي هذا المكان، يعاني الناسُ الجوعَ على الرغم من الخيرات الموجودة: «لماذا يسْكن جوعٌ في الأهوار/ جوعٌ وثلاثة أنهار؟!»[9] وهذان شطران كافيان للإطلالة على ذلك المكان المهمل، وفي هذا الإهمال أسبابٌ كافيةٌ لإطلاق شرارات الثورة ذات الطرح الماركسيّ الذي يؤمن به الشاعر.

ب) الأماكن والأحياء الشعبيّة. هناك مجموعة منها صوّب الشاعرُ عليها كاميرته، ناقلاً مشاهدَ تسوِّغ تمرّد أهلها. وأكثر ما يظهر ذلك في أحياء العراق ولبنان ومصر والخليج. ففي قصيدة «قراءة في دفتر المطر» يطلّ الشاعر على مناطق لبنانيّة شعبيّة، عاثت الحربُ فيها فسادًا، فصبّ غضبَه على مَنْ شارك في قهرها وتشريدِ أهلها، كمنطقة الزيتونة وفرن الشبّاك والشيّاح. وهو يخصّص قصيدة ملحميّة لمخيّم تل الزعتر الذي تعرّض سكّانُه لعنفٍ وتنكيل، فيثور على الحكّام، ويوجّه إليهم شتمًا لاذعًا، مؤكّدًا أنّ الثورة آتيةٌ من الخيام وبيوتِ الصفيح.

ويوسع النوّاب دائرةَ رصده للمكان الثوريّ ليؤكّد أنّ طرفي الصراع المرصودَيْن في كتاباته منتشران في غير قطر عربيّ، وفي

---

١ ـ نبيل أيوب، المصدر السابق، ص ١٤٥.

٢ ـ قصيدة «من الدفتر السريّ الخصوصيّ لإمام المغنّين،» ص ٤٢٦ – ٤٢٧.

٣ ـ «وتريّات ليليّة»/الحركة الاولى، ص ٤٧٦.

٤ ـ قصيدة «نهنهني الليل،» ص ٤٤٦.

٥ ـ «وتريات ليلية»/الحركة الثانية، ص ٤٩٦ – ٤٩٧.

٦ ـ المصدر نفسه: قصيدة (وتريات ليلية)/ الحركة الأولى ـ ص ٤٨٥.

٧ ـ قتيبة أحمد ديب المقطرن، **جماليّات المكان في شعر الإمارات المعاصر** (رسالة لنيل شهادة دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربيّة وآدابها، إشراف د. رفيق عطوي، الجامعة اللبنانية، ٢٠٠٣)، ص ١.

٨ ـ باقر ياسين، **مظفّر النوّاب ـ حياته وشعره** (دمشق: مطبعة دار الحياة، ١٩٨٨)، ص ٤٩.

٩ ـ مظفّر النوّاب: **المجموعة الشعرية الكاملة** ـ قصيدة «قراءة في دفتر المطر» ـ ص ٣١٨.

العالم عمومًا. فيستدعي مجموعة أماكن شهدتْ أزمات سياسيّة واجتماعيّة وعسكريّة: «هذا القيء البنيّ الفاخر من رخيوت/ أحد يعرف ما رخيوت/ هذا تلّ الزعتر هذا الدامور وسيناء وأنطاكيا/ طنب الصغرى طنب الكبرى وأبو موسى وإلى آخره.»[١]

وفي مناسبةٍ أخرى، يقدّم الشاعر صورةً عن حيّ الحسين في القاهرة، حيث الشعب المنتظر ساعةَ الصفر للثأر من ظالميه، بقيادة الإمام الحسين: «طلقة غامضة تفتح في الشرقِ الحسابات/ .../ يبتدي حيُّ الحسين النار/ يشتاق الحسين بن عليّ/ خارجًا بالدم من مرقده/ يصطفّ من صلّى صلاةَ السيف والطلقة.»[٢]

ومن لبنان ومصر، يتوجّه النوّاب نحو الخليج، وينبش أماكنَ في الحجاز مشحونةً بالغضب والجوع والإهمال، لكنها ترفض الواقع مادام قاطنوها ثوّارًا من أمثال جهيمان العتيبي: «هذا الجرب الكلّي لن تتركه سيهات/ لن يتركه دمُ جهيمان/ لا يتركه الوعدُ العتيبي ليرعى/ وأرى قدحَ السكاكين من الأحساء/ إني لأراها وأرى خلف رماد الصمت/ ماذا في المواقد.»[٣]

ومن الحجاز، تحطّ عدسةُ النواب رحالها في اليمن، ليعوّم مدنًا وأحياء شبه مغمورة برمال النسيان والجوع والقهر، لكنْ تحت رمادها تقدح جمراتُ الثورة: «هذا الجوع العربيّ المالك للنفط.../ هذي رخيوت/ وهنا يا سادة تسكن كلُّ العبرات وأبكي حممًا/ أحد يعرف رخيوت.. أحد يعرف رخيوت وحوف؟/.../ مملكة للجوع وللأوبئة الجلديّة والقيء وللثورة أيضًا/ شاهدتُ، بعيني، الحاملَ تأكلُ ممّا يتقيّأ طفلٌ محموم/ وتغذّي الولدَ الآخرَ من نفس القيءِ الأسود!/ ما أعظمَ ما صنع النفطُ العربيُّ بنا/ نتجشّأ حتّى التخمةِ جوعًا!»[٤]

وهناك أمكنة مشابهة أخرى، يلتقط الشاعرُ مشاهدَ من أحيائها وأزقّتها، موزّعةً على خريطة الوطن العربيّ الذي يشهد صراعًا سياسيًا وفكريًا وطبقيًا، فتؤدّي دورًا مهمًا في تسيير هذا الصراع. ومنها: سيناء والبصرة وصيدا وأرنون والليطاني والمخيّمات.

ج) فلسطين. تشكّل فلسطين مساحةً واسعةً تتربّع في قلب قصائد النوّاب. فهو يزحف نحو هذا المكان بزيّ الفدائيّ، رافضًا المساومةَ على أيّ جزء منه؛ ذلك أنّ البوصلة التي لا يكون اتّجاهُها فلسطين «بوصلةٌ مشبوهة»، وعلى الجنود العرب تحطيمُها «على قحف أصحابها.»[٥]

يستحضر النوّاب فلسطينَ مختصرةً بعاصمتها القدس، شاحذًا نخوةَ الجماهير، صابًا حرارةَ الثورة في دماءٍ كادت تجمد في العروق، داعيًا إلى تحريرها بالثورة والدم: «أيها الدمُ العربيّ لماذا هُزمت/ وواجبُك العسكريّ فلسطين؟/ أنت أجب، أيها الدم، يا سيّدَ المعرفة.»[٦]

وكثيرة هي المناسبات التي يُقحم فيها النَّوّاب فلسطينَ، مؤكّدًا ضرورة النهج الثوريّ من أجلها لأنها تستحقّ ذلك. كما يشير إلى أهميّتها في إشعال نيران الثورة؛ فهي الثورة الأمّ، وأبناؤها الشرفاء لا يرضون بما هو دون الثورة والدم، وهذا ما يشكّل ركنًا أساسًا من أركان الرؤية الثوريّة التي ينتهجها الشاعرُ ويتّخذها طريقًا للخلاص.

الأبطال الثوريّون

اعتمد الشاعرُ على أبطالٍ عرفهم التاريخُ منذ القدم، فكانوا منبرًا يطلق الشاعرُ عبره رؤيته الثوريّة الاشتراكيّة التي «تعكس موقفَ خالقِها من القضايا الفكريّة والاجتماعيّة والتاريخيّة والسياسيّة.»[٧]

الأبطال الذين شكّلوا حيّزًا واسعًا في قصائد النوّاب هم أبناء الأوساط الشعبيّة التي ينتمي إليها الفلاحون والعمّال. وهم أبطال ثوريّون، تثْبت جرأتُهم أنّهم مناضلون بالفعل، لا بالكتابة والتنظير شأن الثوّار الكتبة الذين كانوا سببًا من أسباب ضياع فلسطين والحقوق.

أبطال النوّاب، القدماء والمعاصرون، العرب والأمميّون، يلتقون في صفاتٍ مشتركة، أبرزُها التضحية في سبيل الأمّة، لا التجارة بدماء الشهداء لقبض «أثمان الجثث.»[٨] وهو يحشد عددًا غفيرًا منهم، ويوزّعهم على دواوينه، مدجّجين بأسلحتهم حينًا، ورؤاهم التغييريّة حينًا آخر. فمِنْ عمق التاريخ، يستلّ سيفَ الإمام عليّ والحسين وصلاح الدين وغيرهم ممن لم يجدوا سوى الثورة طريقًا للخلاص. كما يستنجد بالأفكار ذات البعد الثوريّ والملمح الاشتراكيّ التي نادى بها القرامطة وأبو ذرّ الغفاريّ والأهوازيّ. ويؤكّد الشاعر وحدةَ أهداف هؤلاء، ووقوفَهم ضدّ الظلم في صورة تجاوزتْ حدودَ الزمن. فهو، إذ يتحدّث عن مرحلة تعذيبه، يصف كيف اصطفّ الثوّارُ حوله زارعين في نفسه القدرةَ والأمل: «واحتشد الفلاحون عليّ، وبينهم كان عليّ وأبو ذرّ والأهوازي ولوممبا/ أو جيفارا أو ماركس أو ماو لا أتذكّر ـ فالثوّار لهم وجهٌ واحدٌ في روحي/ تشقّق لحمي تحت السوط فحطّ عليّ رأسي في

١ ـ قصيدة «تل الزعتر.» ص ١٩٠ـ ١٩١

٢ ـ قصيدة «طلقة ثم الحدث.» ص٢٠٤ ـ ٢٠٥.

٣ ـ القصيدة نفسها، ص ٢١٩.

٤ ـ قصيدة «تلّ الزعتر.» ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

٥ ـ قصيدة «الأساطيل.» ص ٢٤.

٦ ـ القصيدة نفسها، ص ٢٥.

٧ ـ حسن عليان، **البطل في الرواية العربيّة في بلاد الشام** (المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، ط.أولى، ٢٠٠١)، ص ٩.

٨ ـ **المجموعة الشعرية الكاملة**، قصيدة «طلقة ثمّ الحدث.» ـ ص ٢٢٥.

حجرته/ وقال تحمّلْ فتحمّلت.»[1]

إنّ الثورة والاشتراكيّة امتدادٌ عبر التاريخ، والنوّاب يستنكر نسيانَ تلك المدّة الزمنيّة التي شكّلتْ إرهاصًا لولادة هؤلاء الأبطال الذين حملوا مشعلَ الثورة عبر العصور:

«كيف نسينا التاريخ كيف نسينا المستقبل/ كان القرنُ الرابع للهجرة فلاحًا/ يُطلق في أقصى الحنطة نارًا/ تلك شيوعيّة هذي الأرض.../ ووقفتُ أمام القرن الرابع للهجرة/ تلميذًا في الصفّ الأوّل/ يحمل دفترَه يفترش الأرض/ ويعرف كيف تكلّم عيسى في المهد/ فإنّ الثورة تحكي في المهد/ ويسمع صوت السدم الناريّة تبدأ بالخلق/ اللهمّ ابتدئ التخريبَ الآن/ فإنّ خرابًا بالحقّ بناءٌ بالحقّ/ وهذا زمنٌ لا يشبه إلاّ القرنَ الرابع.»[2]

ولم يكتفِ الشاعر بالتوحيد بين الثوّار المختلفين في بعض العقائد، بل يحمل على يسار لم يتبنَّ حركةَ جهيمان العتيبي الإسلاميّة في الحجاز مثلاً. فحركة جهيمان، في رأي النوّاب، حركة ثوريّة تملك الوعيَ في الصراع الطبقيّ الذي طالما ينادي به اليسار، فكيف يستفسر الثوريّون عن أصول هذه الحركة مادام الهدفُ واحدًا، وهو إسقاطُ الطبقات العليا والمتآمرة: «لم يناصرْك هذا اليسارُ الغبيّ/ .../ كيف يحتاج دمٌ بهذا الوضوح/ إلى معجمٍ طبقيّ لكي يفهمه؟»[3]

الثورة أمميّة والعباءة عربيّة

على الرغم ممّا ينادي به النوّابُ من شعاراتٍ ثوريّةٍ تظلّلتْ بلواء الاشتراكيّة المنادي بالعدالة واتّحاد المظلومين في العالم، فإنّه لم يخرجْ على الإطار القوميّ. وفي هذا تأثير واضح للبيئة والحركات الفكريّة التي سادت في زمنه.

وأكثر ما ظهر ذلك في اختياره للأماكن، وفي تعامله مع القضيّة الفلسطينيّة في وصفها قلبَ القضيّة العربيّة. هذا بالاضافة إلى ما ظهر من إشارات قوميّة أكثر ما تمثّلتْ في بعض الأحداث والأبطال واللغات الدينيّة. فمهما غرّب أو شرّق، فإنّ روحه تبقى عربيّة الانتماء، تَشْغلها القضيّةُ العربيّة: «يا حاملَ مشكاة الغيب بظلمة/ عينيك، ترنّمْ من لغة الأحزان، فروحي عربيّة.»[4] ثمّ يؤكّد عروبة تلك الروح المستمدّة من اللغة العربيّة، فيكرّر ما قاله سابقًا: «يا مشمس أيّام الله بضحكة عينيك/ ترنّمْ من لغة القرآن فروحي عربيّة.»[5]

كما يلجأ الشاعر إلى بعض المعالم التي أصبحتْ رمزًا عربيًا، كالنخل، ليؤكّد تأصّلَ جذوره بالأرض العربيّة: «من هرّب ذاك النهر المتجوسق بالنخل على الأهوار؟/ أجيبوا... فالنخلة أرض عربيّة/ حمدانيّون بويهيّون سلاجقة ومماليك أجيبوا/ فالنخلة أرض عربيّة.»[6]

«اللهمّ ابتدئ التخريب الآن/ فإنّ خرابًا بالحقّ بناءٌ بالحقّ/ وهذا زمنٌ لا يشبه إلاّ القرنَ الرابع.»

كما يتحدّث عن علاقة التينة بالأرض ـ وللتينة دلالات وأبعاد دينيّة وقوميّة لما كان له ذِكْرٌ في القرآن. فهو يرى أنّ الأرض العربيّة ستظلّ تضخّ بمقوّمات الحياة لهذه المعالم التي تنقل صورة العروبة والبلاد العربية بين أوراقها أو تضاريسها: «فإنّ التينة في الأرض العربيّة ليس تموت/ هذه التينة أعجزت الخصي/ وأعجزت الأحلافَ وأعجزت الشاه/ وباسمك باسمك أعلن صوتي.»[7]

وفي توجّهه نحو قلب القضيّة النابض فلسطين، يتقدّم بوصيّته ذات البعد الثوريّ المذيّل بإشارات قوميّة واضحة. فهو يوصي فلسطين برفض أيّ لقاح وأيّ لغة إذا لم يكونا عربيين: «كوني عاقر، أي أرض فلسطين، فهذا الحملُ مخيف/ كوني عاقر يا أمّ الشهداء من الآن/ فهذا الحملُ من الأعداء دميم ومخيف/ لن تتلقّح تلك الأرض بغير اللغة العربيّة.»[8]

وهكذا يتبيّن أنّ الشاعر رفع نداءَ الثورة طريقًا وحيدًا للخلاص، فكان شعارُه أمميًا بزيّ عربيّ؛ أو أنّ لواء الشيوعيّة لديه قسمان: الأول منجل أمميّ، والثاني سيف عروبيّ. القضيّتان متمِّمة إحداهما الأخرى.

خاتمة

يتّضح أنّ النوّاب ثائر على واقع يقوم على ثنائيّة ضديّة، بين الحاكم والمحكوم، الجائع والناهب، الثائر والمستسلم،... فيقف إلى جانب الاتّجاه اليساريّ الرافض ذلك الواقع أو الوعي الفعليّ، راسمًا طريقًا لخلاصه، تمثّلتْ في الثورة التي تتّخذ السلاحَ وسيلةً لا تعرف المساومة. ومن أجل الوصول إلى هدفه وظّف الشاعر عناصرَ عديدةً. وأكثر ما ظهر ذلك في استخدام الأماكن التي هي بؤر محرِّضة على الثورة أو شهدتْ تحوّلاتٍ ثوريّة عديدة.

كذلك اعتمد الشاعر على أبطال اتّخذوا الشهادة طريقًا لخلاص الأمة، فكانوا تاريخيين ومعاصرين، عالميين ومن العالم العربيّ. وعلى الرغم مما حملته قصائدُ النوّاب من رؤية ثوريّة ذات طابع أمميّ تَمثّل في النهج الماركسيّ، إلا أنّ الشاعر لم يخرجْ من تحت عباءته القوميّة، بل ظلّت القضيّة العربيّة المحرّك الأساس للثورة ولرسم طريق الخلاص.

بيروت

---

١ ـ المصدر نفسه: قصيدة «وتريّات ليليّة» / الحركة الثانية، ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩.

٢ ـ قصيدة «وتريّات ليليّة» /الحركة الثانية، ص ٤٩٥ ـ ٤٩٧.

٣ ـ قصيدة «في الرياح السيّئة يعتمد القلب،» ص ٢٨ ـ ٢٩.

٤ ـ قصيدة «وتريّات ليليّة»/ الحركة الأولى، ص ٤٥١.

٥ ـ المصدر نفسه، ص ٤٥٤.

٦ ـ المصدر نفسه، ص ٤٧١.

٧ ـ المصدر نفسه، قصيدة «تل الزعتر،» ـ ص ١٨٨.

٨ ـ المصدر نفسه، ص ٤٨٥.